ترجمة وتقديم: مالك سمارة

يعقوب شطاينبرغ و«أحمد العربي»: نصّان صهيونيّان من وحي «المتوحّش النبيل»

تقديم

نجد في فلوكلوريات الاستعمار الحديث، حتى قبل عصر الاعتراف أو «التسوية/المصالحة» (reconciliation)، محكيات كثيرة من وحي مجاز «المتوحش النبيل»- عن بوكاهنتس مثلًا؛ وقصائد من قبيل «قبر المحارب الهندي» لمارشال بايك، وقصصًا من مثل «حكايات الرجل ذو الخرقة الجلدية» (Leatherstocking Tales) لفينيمو كوبر. لكن يندر أن نجد ما يناظر ذلك في الأدبيات العبرية، والحديث هنا عن فترة ما قبل النكبة- لحظةِ الالتقاء الأولى مع البلاد وأصلييها. قد يُردُّ الأمر إلى اعتبارات متعددة: فكرة «الأرض بلا شعب» التي كان لزامًا أن تظل متماسكة في الخطاب العام -لغايات المشروع الصهيوني الخاصة؛ النمط المذوَّت «اللا- تبشيري» الذي وسم الصهيونية؛ وذهنية الغيتو الموروثة التي أفرزت أنَويَّة إثنية يهودية أكثر تجذّرًا وأمضى حدودًا.

ليس الادعاء هنا بأن العربي كان مغيّبًا تمامًا في الأدبيات الصهيونية المبكّرة؛ قد يجد القارئ ظلالًا – استشراقية ودونيّة- حتى في أعمال أدباء المركز الصهيوني مثل حاييم برينر وأورلوف أريئيلي ويعقوب رابينوفتش؛ لكن أن يحتلّ «العربي» دور البطولة، حدّ أن يكون الاسم الوحيد في القصة وما دونه مبنيّ للمجهول- كـ«أحمد فتى البستان»- فذاك ما يكاد يكون مغيَّبًا في أدبيات المستوطنين الأوائل، ربّما باستثناء بعض تجارب موشيه سميلانسكي، مثل قصته «لطيفة»، سوى أنّ الأخير كان من طلائعيي الهجرة الأولى، الأقل أيديولوجيّة، ومن دعاةِ «العيش المشترك». لهذه الأسباب، يبدو نصّا

يعقوب شطاينبرغ المترجمان هنا شواردَ نادرة في الأدب الصهيوني المؤسس، وتحديدًا أدب الهجرة الثانية. وهما أيضًا ليسا الوحيدين بين مؤلفاته، إذ نجد له قصّتين أخريين بعنوان: «سعدية» و«الحج من حفتصيبا».

لكن وراء هذا «الهيام العربي» لدى شطاينبرغ، وهو الذي ولد في أوكرانيا واستوطن في فلسطين عام ١٩١٤، تركيبات كثيرة تتقاطع بين الموقف العقائدي والطوايا السيكولوجيّة. كيهودي، كان شطاينبرغ صهيونيًّا. وكأديب، كان واحدًا من ثلاثة سمّاهم بياليك في مقالة مبكّرة روّادًا للقصيدة العبريّة الصاعدة. ورغم ذلك، ليس في سيرته «أوسمة» صهيونيّة كثيرة، باستثناء جائزة بياليك التي نالها عام ١٩٣٧، في فترة متأخرة نسبيًّا من مسيرته الأدبية. العزوف عن الأيديولوجيا،[1] والانصراف عن قضايا المعاصرين إلى العوالم الذاتية المركّبة، كما يقول ناتان زاخ،[2] دفعاه إلى الهامش الصهيوني. وفي هذا الهامش، حيث انغمس في واقعه الخاص –العقائدي والهواجسيّ والصهيونيّ في آن معًا– كتب شطاينبرغ عن العرب كما لم يكتب أحد من مجايليه. وللأمر أبعاد أخرى أيضًا، يظلّ المكنون العقائدي السيكولوجي مداها الرئيس: ذاكرة شطاينبرغ الحسيديّة المشحونة بخلجات شرقية، وإيمانه بأن عرب فلسطين ما هم إلا يهود اعتنقوا الإسلام في أوقات الاضطهاد.[3] تلك المركّبات الثلاثة –الهامش الصهيوني، الحسيدية، رابطة الدم العربية– تبدو كلّها مختزلة هنا في شخصيّة «المجهول»، الذي «لمّا يزل يهمّش أمام أبناء شعبه»، ثم يجد أسارير خلجاته تجاه الفتى الشرقي عند العودة بالذاكرة إلى أيّام دراسته في «اليشيفاة»، وتاليًا تمّحي هالة الفتى العربي في ناظريه فقط في اللحظة التي يدرك فيها أنه كبر وتربّى عند سيده اليهودي ثمّ لا يعود يراه بعين «آخروية».

لكن السؤال– استدراكًا لنقطة سابقة– هو كيف يمكن أن نفسّر هذا الاستحضار المكثّف والرومنسي للعربي في قصّة صهيونية– أن يكون «أحمد» هو المعرَّف الوحيد وسط شخوص بلا أسماء؛ وأن يكون «جانبه أعلى من جانب» سيّده اليهودي في المساجلات؟ في الواقع، لا يقدّم دور البطولة هنا إجابة بحدّ ذاته، على ثقل حمولته الرمزية: إن كان العربي مدموغًا في صورة «المتوحّش» في الأدب الصهيوني القومي، فهو هنا لا يعدو كونه «متوحّشًا نبيلًا». تبدو كلتا الصورتين متوالدتين في التخيل الاستعماري، وكذلك في اللغة:

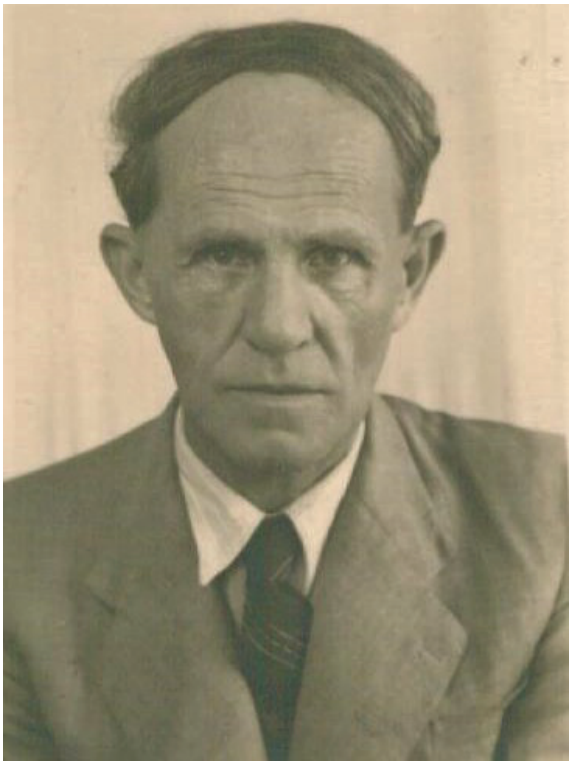

يعقوب شطاينبرغ.

إن كانت «الوحشيّة» في معناها الظاهري تعني– لو استعرنا استنتاجات الناقد الإسرائيلي مناحيم بيري عن صورة العرب في الأدب العبري– «الترهيب، والتخريب، والخطر، والمكر، والقسوة، والقذارة، والانحطاط»،[4] فإنها في المعنى الباطني تحيل إلى الغرابة، والسحر، والرؤى الشبحيّة، والغلظة، والجلَد، والبريّة بجمالها المعفَّر، والوجود الغرائزي، أو (Dasein) بالمفهوم الهيغلي عن «الوجود المنقوص»– بحيث يبدو الأصلاني مجرّدَ كائن بيولوجي، لا جوهراني، كسائر كائنات المكان، ومن ثمّ تظلّ آدميّته ضمنيًّا منقوصة.

تنطبع كلّ تلك المعاني في رومانسية شطاينبرغ بشكل صارخ. هكذا تخيّم الغرائبية والرؤى الشبحيّة على قصيدته: يمرّ العرب تحت شبّاكه كأشباح الليل، يغنّون في لحظة ما خارجة عن الوقت، كحلم، أو كابوس. لنا أن نتأمل أي رمزيّة تحملها الرؤى الشبحية في هذا السياق: ألا تبدو الأشباح إشارة مركّبة إلى الوجود والعدم؟ أو بالأحرى، إلى الغياب من خلال الحضور؟ يستأنس شطاينبرغ بوجود العرب السراة في المكان، وجودهم البلاغي وحسب، كرؤى عابرة. من وحي «الوحشية النبيلة» هذه أيضًا تنطبع صورة البرّية

والغرائزيــة في شــخصيّة أحمــد، وتتكثّــف تمامًــا حينمــا نعــرف أن سرّ تلــك العاطفــة تجــاه هــذا الفتــى الصلــد، ذي الــرداء البرتقــالي والعينــين العنبريّتــين، هــو أنــه يذكّــره بقطّــه الأليــف، ذي الخرمشــات اللطيفــة. ألا تمثّــل هــذه «الخرمشــة اللطيفــة» البرّيّــةَ بأقــصى مــا فيهــا مــن قســوة ودعــة؟

لا يفــوّت شــطاينبرغ تفصيلــة حتــى يلامــس قــرار صورة «المتوحّــش النبيــل»، بــكل مــا تختزله مــن مجاز اســتعماري؛ ومــا يجعــل الأمــر لافتًــا أكثــر، هــو أننــا لا نجــد في ســيرته مــا يحيــل إلى تأثّــر بأدبيــات اســتعمارية أخــرى، بالنظــر إلى أن معارفــه اللغويــة لــم تتجــاوز العبريــة واليديشــة والروســية. ربّمــا تكــون صــورة «المتوحّــش النبيــل» هــذه الحاصــل المشــوّه، والمعمّــم، لـ«أنســنة الاســتعمار»؛ لعلّهــا أقــصى مــا يمكــن أن تصــل إليــه عاطفــة المســتعمر؛ لأن «المســتعمر يســتجلب ســيادته معــه»، ومــن ثــمّ فــإن عواطفــه لا تتنــزّل إلا مــن علاقــة الســيّد والتابــع. هكــذا، مثــلًا، تتــلألأ عينــا أحمــد في ناظــري شــطاينبرغ حــين يقــف بــين يــدي ســيّده «متأدّبًــا»، تمامًــا كمــا تتــلألأ في ناظريــه عينــا حيوانــه «الحبيــس».

أغنية عربية

في سكون الليل سمعتُ أغنية يتيمة؛
في الطريق العام وحيدًا غنّى العربيُّ
نغماتٍ ليست لها رنّة تحنان ولا انسياب عذوبة
وجلسوا دون أن يلاحظوا قلبي
ظلّ رجع الأغنية يرنّ ويصدح
كألم لا اسم له.. كحزن بلا علامات
كما لو أن كائنًا عجائبيًّا
طفا ليفترس قسماتِ الليل وشجونه الكبيتة
يبتعد صوت المغنّي وتمّحي كل الأحجيات
ولا يفزّ بي شجو فرحٍ أو أسىً
بَعد أن ينتهي الغناء فقط يُستأنف الليل
ويغور الصوت في فم الصمت
وكأن مشهد الليل انسدل فجأة
بينما أغنية العربي في رمقها الأخير:
ينحبس فضاء الطبيعة الكثيف وراء قضبان الصمت
وتنطبق عين الليل الكئيبة.

أحمد

لنحــو جيــل كامــل لّمــا يــزل يُهمَّــش ذاك المجهــول أمــام شــعب البــلاد. طــوال أيّــام مكوثــه في يهــودا كمواطــن صامــت، لــم يفتــأ يماحــك تحــوّلات المســتقبل في موطنــه. ومــع تعاقــب الأيــام، بلّغتــه الصدفــة معرفــةَ فتــىً عربــي- إنــه أحمــد فتــى البســتان.

قابــل المجهــولُ أحمــد للمــرّة الأولى وهــو فتىً في الخامســة عــشرة؛ وكان ذلــك في المــرّة الأولى التــي جلــس فيهــا القــادم مــن المدينــة مــع صاحبــه المدنــي الآخــر في البســتان الــذي يحــوي بيــت المــاء. أعــدّ الضيــف، دون إدراك منــه، ذهنــه لمــرأى شــخص جديــد، لأن مالــك الأرض رفــع صوتــه، ونادى مــرّة ومرّتــين بنــبرة لا تعكــس نذيــر الســادة: «أحمــد، أيــن أنــت؟». وهنــا، أطــلّ مقتربًــا عــبر الطريــق العريــض الــذي يتوسّــط البســتان أجــيرٌ مــن العــرب، ســائرًا بقامتــه المنتصبــة إلى أجمــة الأشــجار، حيــث انطلــق نــداء ســيّده بعبريّــة لَكْنــاء كالتــي لــدى الأشــكناز. لــم يرتفــع وقــعُ الصّــوت مــن قبيــل إضفــاء الســلطة حــين عــاود الســيد النــداء مجــددًا. لكــن الصبــي أخــذ يســتعجل في مســيره، وفي هرولتــه بــدا وكأنــه يقيــس خطواتــه، والــرداء البرتقــالي المخطــط، الــذي هبــط إلى أخمــص قدميــه، اتّقــد بوهــج الشــمس وضاعــت تفاصيلــه مــن المِشــية المتعجّلــة. وعندمــا بلــغ الجالســين، اقــترب إليهــم كأتــمّ مــا يقــترب النــاس مــن بعضهــم، ألقــى تحيّــة الســلام العبريّــة، وفي الحــال تــلألأت عينــاه أمــام الحاضرَيْــن؛ نظــر والبرتقــالي يزيــد نظــرات الرجــل الشرقــيّ إبراقًــا. إنهــا النظــرة التــي تجيــد تصويــب بريقهــا بخفّــة وسلاســة إزاء بعــض الســلطات. أطــرق لبرهــة ولــم ينبــس ببنــت شــفة إلى ســيّده؛ ولكــن بوصفــه فتــىً جَلِــدًا لا يتغافــل عــن أمــرٍ حتّــى في نوائــب دهــره، أدار عينيــه إلى الضيــف الغريــب- عينــين ســوداوين مقطّرتــين بصبغــة عنبريّــة، وحدَقَتاهمــا غائرتــان بــلا قــرار. بريــق هاتــين العينــين- المذهّــب، والمبهــم- يلهــب المجهــولَ حماسًــا، حتــى يــكاد لا يســتطيع أن يكبــح نظــره دون الصبــي العربــي هــذا، الــذي ينظــر إليــه بإطــراء اللقــاء الأول، وقــد زاده الــرداء البرتقــالي وداعــة إذ وقــف متأدّبًــا- رغــم أن تبــادل النظــرات هــذا لــم يــدم ســوى فــترة وجيــزة.

ثــمّ بــدأ صاحبــا البســتان، الأجــير وســيّده، يتبــادلان أطــراف الحديــث في الشــؤون اليوميّــة، التــي بــدا فيهــا جانــب الأجــير أعــلى شــأنًا بــين الاثنــين، ربمــا بســبب شــكيمة لســانه الــذي ينطــق عبريّــة ناصعــة مــع حــدّة في المقاطــع الإيقاعيّــة. وفي كل تلــك اللحظــات، عــلى امتــداد

المحاورات والتجوال قريبًا وبعيدًا بين مخابئ الأشجار، غذّ الرجل الزائر خطواته هنا وهناك، وقد شدّ ناظريه، بوصفه مدنيّاً غريباً، مرأى صفائف الأشياء المكوّمة عند بوابات بستان واسع. لكن خلال مكوثه هناك في غضون تنهيدات النسيم، وطنين النحل الذي لا يبارح، لمّا تُرك ساعة في فراغ الانتظار، مهجورًا ومهملًا حتى أوان الموعد- ظلّ، بدلًا من ذلك، مركّزًا كلّ قواه التأمّلية إلى هذين الشخصين –الأجير وسيده- ووقر في ذهنه أن جانب الصبيّ، في مجمل هذا السبر التأمّلي، بدا تارة أخرى أعلى شأنًا من جانب مالك الأرض اليهودي؛ لأنّ المجهول، خلال تلك التأمّلات، استذكر أمرًا من أيّام مراهقته، وفي تلافيف الذكرى كانت ثمّة إجابة على لغز الفتى المذهّب العينين. كان ذلك أثناء مكوث المجهول في البلدة، حيث عاش بعيدًا عن الأهل، ثم كان يعود إلى بيت العائلة ليتمّم مراهقته المبعثرة. مرّ عليه معظم فصول تلك الفترة في صفوف المناحة المستأجَرة حيث يُلقَن المنهاج التعليمي؛ وأيضا في مكوثه غالبًا في الغرفة الخلفية الصاخبة، المكشوفة أمام الشارع، حيث كان يدرس بتبرّم ما اجترّ من علوم مختلفة، وأحيانًا في لحظات التبلد يصوّر لنفسه أحداثًا مستقبلية لا تتحقق- وتناله في الأثناء بعض خرمشات القط اللدن والمشاكس، الذي تتلألأ نظرة إطراء وديعة وتالدة من حدقتيه المذهّبتين، وكذا دفءٌ رهيف وتالد من فروه البرتقالي. كان يطلّ عليه آخرون من العائلة عن رغبة أو من فراغ وبطالة. الجدّة المنشرحة دائمًا لدى قدومها كانت ترخي كذلك كفّها الهزيلة من حين لحين على فرو هذا الحيوان الحبيس، الذي يمدّ لسانه في تلك اللحظة ليمسّد بدنه، في مزيج من الانزعاج والغُنج. وهو، طالب اليشيفاه الشديد الملاحظة، متى ما لاحظ الحياة في صورة أسراب من الوميض لا يعود قادرًا على احتمال العيون الوامضة لذلك الحيوان المحبب. وفي كثير من الأحيان، عندما يستغرق في رقوده، يطيح في هوّة أحد الوساوس الممتدّة التي تقلّب عليه لبَك الماضي والحاضر. يخرج صوتٌ ما كامن وينتشر في الأرجاء: أقدامُ القط المنسلّ تخدش أروقة الغرف جميعها، حتّى تسمعَ الأذن وطأة غير عادية، كما لو أنها وشوشة متعالية تتدحرج خلسة- وشوشة طاغية تأتي، في لحظة من غياب الإراك، على كل وساوس المقهورين والبشر اليوميّين المستغرقين في رقدتهم.

وبينما كان ينعم المجهول في تأمّلاته، صار صاحب الأرض واقفًا إلى جانبه بالفعل وجدد له واجب الضيافة. وبوصفه شخصًا يستفيق من غفواته فجأة- رمى سؤالًا خاطفًا: كيف يتحدّث أجير عربي لا يزال طريّ العود اللغة بلسان عبريّ سليم؟ فأجاب الثاني: ألا ترى من بعيد، في تلافيف البستان الآخر، أوتادَ خيمة ما مصنوعة من الجلد؟ لديّ هناك عائلة عربية حارسة- من العوائل البدوية المخلصة؛ لقد كبر الولد هناك وصار يتحدّث العبرية مثلي. يسمع الرجل الإجابة فيقبض على المسألة، ثمّ يقول بلا مواربة: دعني أذهب لبرهة إلى مكان الخيمة، وحدي فقط، وأعاينهم قليلًا من مكمن ما. وفورَ عبوره جادّة واحدة إلى قلب البستان، انحرف جانبًا وطفق متقصّيًا أثر كِسَر الشجر، وغايتُه أن يجد موضع الفتى الذي يحتطب، لأن المعزقة كانت في يد الأجير اليافع عندما خرج. وحين وجده أخيرًا، رآه واقفًا بظهرٍ منحنٍ وقدمين منفرجتين على المعزقة، ورداؤه البرتقالي يلفّه حتى أخمصه، وفي قسماته المنقبضة من المكابدة لا ينزّ أيّ سرّ، سوى سرّ العرَق التالد الذي لدى العمّال.

الهوامش

١ نوريت بوكوفيتش، **"الإيثوس والتيلوس": الصور عند شطاينبرغ**، بداخل: **السرد القصصي: دراسات في القصة اليهودية (الجزء الثالث)، تحرير:** أفيداف ليفسكر ألداف ورلا كوشلبسكي، جامعة بار إيلان، ٢٠١٣، ص٣٦٤.

٢ روحماه ألبوغ، **سينهض جيل جديد لكننا لن نتمتع بمجده**، هآرتس، ١٠ تشرين الأول ٢٠١٧

https://www.haaretz.co.il/literature/.premium-1.4510856?lts=1647479549318

(آخر زيارة: ٢٠٢٢/٣/١٨)

3 Eisig Silberschlag, "Arab-Jewish cultural symbiosis: Jews and Arab: Confrontation", Hebrew Studies Vol. 18, 1977. P13.(1977)

4 Daniel Bar-Tal, Yona Teichman, **Stereotypes and Prejudice in Conflict Representations of Arabs in Israeli Jewish Society**, Cambridge University Press, July 2009. Pp 181-182.